المماليك في بغداد:

- بدء ظهور طبقة المماليك:

قبل البحث في كيفية قيام المماليك بتأسيس حكمهم في العراق لابد من دراسة الظروف التي ادت إلى تفوقهم في المجتمع العراقي وهم غرباء عنه، لقد وجد الوالي حسن باشا (١٧٠٤-١٧٢٣) نفسه أمام مشاكل كثيرة، منها تفكك القوات الانكشارية، وتحللها من المسؤولية وتحولها إلى آلة فساد وفوضى حتى أن اكثرهم لم يعد يلتزم بالحضور في الثكنات الا لاستلام المرتبات ثم اخذ الكثيرون منهم يشتغلون بمهن مختلفة ، وصار عدد كبير منهم لا يجتمعون الا لرفع صوت العصيان ، بمطالبة زيادة الرواتب او بطلب عزل وزير، او نصب وزير، يضاف إلى ذلك مشاكل المجتمع العراقي الذي تسوده العادات العشائرية وتتحكم فيه العصبية القبلية التي تحول دون احترام الحكومة واطاعة انظمتها، ونتيجة لذلك وجد حسن طريقها في تجري الامور ويترك قبله الولاة حكم كما يحكم أن اأّمطريقتين: امام نفسه باشا الاعتيادي، أو يستخدم قوة مرتزقة من غير العراقيين. وقد وجد حسن باشا الطريق الثاني هو الافضل لإقرارالامن والنظام، إذ كان من الصعب عليه أن يتخذ من العراقيين آنذاك قوة يستند عليها في تحقيق ما يريده لصعوبة انقيادهم بسبب تحكم العصبية القبلية فيهم، وكان حسن باشا قد الف استخدام الجراكسة الارقاء في السراي السلطاني، وشاهد جدارتهم وقابلياتهم العسكرية والادارية.

قام حسن باشا بشراء المماليك من أسواق تفليس الزاخرة بالرقيق الابيض وكان هؤلاء يجلبون اطفالا فيودعون في مدارس خاصة بهم ليتعلموا القراءة والكتابة والسباحة والفروسية وفنون القتال ، وقد كانت هذه المدارس تضم ايضاً البعض من ابناء الاسر العراقية الا ان عدد هؤلاء كان قليلاً بالنسبة لعدد المماليك وكثرتهم ، وبعد ان يتخرج هؤلاء من المدارس يدخلون في سلك الجيش او الوظيفة الحكومية. وقد تم تأسيس دائرة خاصة في بغداد تعرف بـ(ايج دائرة سي) أي الدائرة الداخلية مهمتها الاشراف على شراء المماليك .. وتدريبهم وقد تكاثروا بالتدريج وكانت اقلية صغيرة منهم من تولد بغداد. ولقد بذل هؤلاء المماليك منتهى جهدهم ليثبتوا وجودهم في المجتمع البغدادي وتفوقهم على غيرهم، واصبحوا بعد وفاة حسن باشا قوة لا يستهان بها، وازدادت هذه القوة تماسكا في عهد ولاية ابنه احمد باشا الذي سار على نهج ابيه في جلب المماليك والعناية بهم وبذلك تعاظم في حكمه المماليك الجراكسة وثبتت اقدامهم في العراق.

- الحكم المملوكي في العراق:

:- سليمان باشا (أبو ليلة) ١٧٦٢-١٧٥٠:

كان سليمان باشا (أبو ليلة) أول من تولى الحكم في العراق من المماليك، وقد كان من بين الكرج الذين اشتراهم حسن باشا وتعهدهم بالرعاية، وقد حصل هذا المملوك على حريته بخدماته لابن سيده، وبشجاعته التي أبداها في الدفاع عن بغداد عند حصارها من قبل نادر شاه عام ١٧٣٢،ثم تزوج عادلة خانم (البنت الكبرى لأحمد باشا) في السنة نفسها، وقد شغل منصب كتخدا سنين عديدة وظل ينتقل من درجة إلى درجة اعلى واخيرا عهدت اليه ولاية البصرة عام ١٧٣٦.وقد استمر سليمان على تقديم المزيد من الخدمات بأمانة واخلاص وكان يسارع في تنفيذ ما يؤمر به حتى اصبح الساعد الايمن للباشا ، كان يرسله من وقت لأخر لتأديب العشائر المتمردة وقد كان يعود منها في كل مرة منتصرا، حتى كوفئ على ذلك بحصوله على لقب باشا. ولما كان الاهالي يهمهم بالدرجة الأولى توفير الامن والاطمئنان فقد صارو اينظرون إلى سليمان نظرة اجلال وتقدير، واصبح اسمه يتردد على السنتهم مقرونا بالهيبة وقوة الشكيمة، ولهذا فان توليه باشوية بغداد سنة ١٧٥٠لم يكن أمرا غريبا عليهم إذ خبروه مدة طويلة، ولقد واجه خلال سنين حكمه الأولى بعض حركات التمرد العشائرية الا انه استطاع بحملاته السريعة الحاسمة من القضاء عليها ونال بفضل انتصاراته تقدير البلاط السلطاني، وقد اهدى اليه السلطان في عام ١٧٥٢خلعة ووساما تقديرا لانتصاره في حملة سنجار، بالإضافة إلى الهدايا الأخرى التي ارسلت للأمراء الذين كانوا معه، وفي بداية عام ١٧٥٣صدر الفرمان السلطاني بجعله وزيرا دائما لكل من بغداد والبصرة ، وصدر مثل هذا الفرمان ايضاً عندما توفي السلطان محمود خان عام ١٧٥٤ ، وخلفه السلطان عثمان خان، وقد كان استلام الوالي لهذه الفرامين التي كان يحملها من الاستانة رئيس التشريفات يجرى بموجب مراسيم واحتفالات.

لقد اظهر سليمان باشا همة كبيرة في الإدارة والحكم، واصبح ا لعدو المخيف للعشائر الثائرة لشدة بطشه واقدامه حتى انهم اطلقوا عليه اسم (أبو ليلة) لحملاته التي تغير عليهم دائما في الليل، وفي عهده اصبح الطريق بين بغداد والبصرة سواء عن طريق الفرات أو دجلة أو البر امنا حتى للمسافرين دون حماية قبيلة من القبائل الامر الذي شجع الكثير من تجار ايران على اختيار طريق بغداد- البصرة على بلادهم التي كانت تسودها الفوضى والاضطراب. ومع كل هذه الشهرة الحسنة التي نالها فان السكان كانوا ينتقدونه بسبب خضوعه لزوجته

عادلة خانم التي كانت امرأة قوية ذات نفوذ باعتبارها ابنة احمد باشا الذي كان زوجها أحد عبيده، وكانت تحاول أن تزج بنفسها في الامور السياسية والحياة العامة بتدخلها في كل شيء حتى انها خصصت اياما معينة لاستقبال المراجعين يلتمسونها في تحقيق وانجاز مطالبهم، وكانوا يجلسون في غرفة خاصة منعزلة عن حريم البلاط ويتولى الحرم أغاسي مهمة استلام العرائض منهم وارجاع جواب سيدته اليهم، وكثيرا ما كانت تلغي الاوامر التي سبق أن اصدرها زوجها أو كتخذاه، بل وجعلت لنفسها وساما خاصا لها يتكون من شريط حريري يلف حول الرأس، وقد اهدته في البداية إلى الاغوات البارزين الذين كانوا قد خدموا جدها واباها كعلامة شرف. وقد اصبحت عادلة خانم بسبب اعمالها هذه حديث الخاص والعام وصارت تتهم بانها السبب في وقوع الكثير من الحوادث فقد ذكر أن سليمان باشا قام بتحريض منها بحملة على الزعيم الكردي سليم باشا بابان الذي مات والدها احمد في حملة ضده من قبل، واستدرجه إلى بغداد حيث امر بإعدامه شنقا في عام ١٧٥٨، كما قيل أن قتل زوج اختها عائشة بريئا كان بتحريض منها.

بلغ نفوذ المماليك القمة في عهده حين اكثر من استخدام المماليك في الوظائف المهمة، وبدأ سيل المماليك يتدفق بزيادة من اسواق تفليس إلى بغداد فأسست لهم مدرسة تتسع لمائتين منهم، وصار أبو ليلة يكثر من استخدامهم في وظائفه الحكومية، فكان منهم الكتبة والجباة وقادة وقادة الحاميات كما كانوا من كبار حاشيته ايضاً ، فادى ذلك الى حرمان الاسر التركية والبغدادية المعروفة من نصيبها الذي اعتادت عليه في جهاز الحكومة سابقا. وفي ١٤ ايار عام ١٧٦٢ توفي سليمان باشا عن عمر ناهز السادسة والستين عاما وذلك على اثر مرض الم به مدة ستة اشهر، وقد ظلت بغداد تردد ذكراه حتى استمع إليها نيبور في عام ١٧٦٦،وقد كان موت سليمان بداية فترة طويلة من الفوضى.

كانت وفاة أبي ليلة الذي لم يعقب احدا على الحكم ايذانا بنشوب نزاع عنيف بين المتحفزين للحصول على منصب الباشوية، فقد كان هناك سبعة مماليك مرشحين للحكم تولى كل منهم في وقت ما منصب الكتخدا، وكان احد هؤلاء عمر اغا الزوج الثاني لعائشة خانم البنت الثانية لأحمد باشا، وكان الاخر علي اغا متسلم البصرة الذي كان من قبل حاكم الديوانية، وهو الذي ساعد ابا ليلة عند زحفه على بغداد عام ١٧٤٩. في وقت اراد الباب العالي اسناد ولاية بغداد إلى والي الرقة سعد الدين باشا كمحاولة للحيلولة دون حصر السلطة بأيدي المماليك، غير أن اضطراب الاوضاع في بغداد بسبب تنافس المماليك السبعة

جعل الباب العالي يتريث في اصدار الامر، ثم وردت عريضة من بغداد تتضمن اسماء المرشحين السبعة لكي يختار السلطان منهم واحدا، فصدر الفرمان بتعيين علي اغا للمنصب الشاغر، وقد قيل أن تعيينه كان بتأثير الصدر الاسبق محمد راغب باشا وتوصيات الكثير من ذوي النفوذ في بغداد وما قدمه من هدايا وأموال إلى المسؤولين في الباب العالي. ولم يكد علي اغا يصل بغداد ويتسلم زمام الحكم حتى بدأت المؤامرات تحاك ضده من اجل قتله والتخلص منه، وقد بلغت هذه المؤامرات أوجها عندما تعرض لمحاولة اغتيال اثناء عودته من محاربة عشيرة كعب عام ١٧٦٣،وبعد فشل هذه المؤامرة راحت القوى المضادة تنشر بين الناس مختلف الاشاعات لإثارتهم ضده، الى حد سرت شائعة تقول انه من فرقة القزلباش وينوي تسليم بغداد لشاه ايران، ومما كان يعطي لهذه الادعاءات مفعولها بين الناس كون علي باشا من اصل ايراني.

لقد كان أهم مروجي هذه الاشاعات اثنان هما: عادلة خاتون إذ فقدت نفوذها في عهده بعدما كانت بمثابة الحاكم الثاني على البلاد في عهد زوجها، والثاني زوج اختها عمر اغا الذي هو من المرشحين السبعة. كان لهذه الاقوال مفعولها بين الاهالي فقد احدثت استياء ضد علي باشا، ثم اندلعت ثورة محلية كان المحرك لها عمر اغا، وكان الانكشارية مادتها، وقد احتل الثوار القلعة، ووجهوا نيران مدافعهم نحو السراي، غير أن علي باشا تمكن من تهدئة الحالة، ثم قام بإعدام الكثير من رؤساء الانكشارية، فساد هدوء مشوب بالتوتر، ثم اعقبته عاصفة هوجاء اعادت الثورة إلى اشد ما كانت عليه بحيث اضطر الوالي في النهاية إلى الهروب من السراي متنكرا بزي امرأة ولجا إلى احدى الدور القريبة منه، ولكن الثوار علموا بمقره فهجموا عليه وأخرجوه وأتوا به إلى القلعة، وهناك قتلوه عام ١٧٦٤ .

- **عمر باشا (١٧٦٤-١٧٧٥) :**

لقد كان من الطبيعي أن يخلف علي باشا في الباشوية المملوك الغالب وهو عمر اغا قائد الثورة الناجحة وقد اجتمع علماء بغداد واعيانها وكتبوا عريضة إلى السلطان متهمين الوالي القتيل بشتى التهم، ومرشحين عمر لولاية بغداد، فجاءت موافقة السلطان على اسناد الباشوية اليه. وهكذا اقتدى مماليك بغداد بمماليك القاهرة بخلق المشاكل لمن لا يرغبون فيه من الولاة للاستيلاء على كرسي الحكم.

تولى عمر باشا الحكم في ربيع ١٧٦٤وشهد عهده احداثا جساما كان اولها ثورات عشائر الخزاعل والمنتفك والعبيد، ثم الطاعون الذي وفد من اسطنبول الى مدن العراق وداهم بغداد عام ١٧٧٢واخذ يسرى إلى سائر انحاء العراق، وقد فتك بالسكان فتكا ذريعا وقيل انه قضى على نخبة ممتازة من ذوي الخبرة وقادة الرأي، لاسيما اولئك الذين لهم المام واطلاع في تمشية الادارة والحكم، وقد حل محلهم مجاميع من العرب والاكراد من الذين لا خبرة لهم ولا دراية مما زاد من سوء الاوضاع. وجاء عام ١٧٧٤لتشهد اضطراب الحالة في كردستان وتدخل كريم خان الزند العسكري في العراق في وقت كانت فيه الدولة العثمانية في ختام حربها مع روسيا التي انتهت بمعاهدة كوجك كينارجي. وقد تمكن الايرانيون في عام ١٧٧٥ من فرض حصارعلى البصرة الامر الذي جعل السلطان يلتفت إلى العراق وكان قد خرج منذ وقت قليل من حربه الخاسرة مع قيصرة روسيا (كاترين الثانية) ،وقد كان الاعتقاد في الاستانة في بداية الامر أن السبب الاكبر في هذا النزاع مع ايران هو عمر باشا لذا فان ابعاده قد يهدأ الحالة في كردستان، وفي البصرة، وكان قد ورد للدولة العثمانية اتهامه بالتعرض للزوار الايرانيين، ومما عزز هذا الاعتقاد ارسال كريم خان الزند سفيرا الى السلطان يشكو من سياسة عمر باشا، وفي الوقت نفسه راح الجميع في الاستانة يفكر في التخلص من حكم المماليك في العراق، غير أن ذلك ليس بالأمر الهين إذ قد تندلع ثورة المماليك في بغداد. لذا فقد عين مصطفى باشا الاسبيناقجي، والي الرقة، لقيادة حملة إلى العراق، وقد وصل إلى بغداد وبصحبته والي دياربكر عبد الله باشا الطويل ووالي كركوك سليمان الجليل، وعبدي باشا، واتخذوا لهم مقرا خارج المدينة. وقد اعتقد عمر باشا أن هذه القوة إنما جاءته عونا لدحر الاعداء وفك الحصار عن البصرة ، لذا طلب من القادة التحرك لانقاذ البصرة ، الا انهم اعتذروا له بحجج مختلفة ، منها ان القادة العثمانيين اشاعوا ان معاهدة صلح قد وقعت بين السلطان العثماني وشاه ايران كريم خان الزند .واخيرا كشفوا لهعن الحقيقة واخبروه بانهم يحملون امرا بتعيين الاسبيناقجي لبغداد وبتحويله إلى دياربكر، فامتثل عمر الامر وترك المدينة ونصب خيامه في (المنطقة) في الجانب الغربي من بغداد استعدادا للسفر ولكن سرعان ما امر مصطفى باشا بهجوم فجائي على مخيمه ليلا، وقد حاول عمر باشا الهروب نحو الكاظمية، ولكنه اثناء هذه المحاولة سقط عن فرسه والتوت رقبته ثم عثر عليه احد الجنود وقطع راسه وذهب به إلى الاسبيناقجي فأرسله هذا بدوره إلى الاستانة. وقد ادعى مصطفى باشا أن الهجوم الذي شن على مخيم عمر كان بسبب البلبلة والاضطرابات التي حدثت في بغداد بإيعاز منه بعد عزله،

وان اقامته في الجانب الغربي كان يقصد منها التمرد والعصيان، ثم اصدر مصطفى باشا امرا يقضي بمصادرة اموال الباشا القتيل، وكذلك امر بجباية الاموال من الاغنياء زاعما انها من اجل انقاذ البصرة، وفي الوقت نفسه اخذ يضيق على المماليك الذين ادركوا نياته وعلموا بالتعليمات التي تزود بها، لذا فقد اخذوا يتسللون من بغداد تدريجيا والتفوا حول الكتخذا عبد الله اغا، واخذوا يهددون بغداد ويشنون الغارة على اطرافها، وتمكنوا من احتلال بعض المواقع، وقد اصبح خطر المماليك يهدد بغداد بالسقوط.

لقد كان الباب العالي كما ذكرنا يرمي من تعيين مصطفى باشا إلى القضاء على نفوذ المماليك في العراق ، الا ان امله قد خاب فقد فشل الوالي الجديد في تصريف سياسة العراق منذ تعيينه، فلم يكن لهذا الوالي أي المام بأحوال الولايات العراقية، كما لم تكن له المقدرة التي تؤهله لإدارتها، وقد استولت عليه الانانية المفرطة فانصرف الى مصالحه الخاصة ومنافعه الشخصية، وفي الوقت الذي تزايد فيه خطر الايرانيين على البلاد في ظل حصارهم لمدينة البصرة، يظهر ان مصطفى باشا لم يعمل بشكل جاد لفك الحصار عن البصرة، الى درجة اتهم من قبل البعض بانه كان على اتفاق سري مع الايرانيين، وان كنا لا نعرف صدق هذا الاتهام من عدمه ،ولكن مصطفى باشا بكل الاحوال قد كتب الى متسلم البصرة يخبره ان المساعدة المرتقبة اليه من قبل العثمانيين ستأتي في وقت متأخر، ويخيره اما ان يتصالح مع كريم خان الزند، أو يسلم المدينة الى الايرانيين، كما اصدر الاسبيناقجي مرسوما يقضي بوجوب ترخيص للقوات والضباط والامراء الذين كانوا تحت ادارته واعادتهم الى الاماكن والمحلات التي جلبهم منها، كل ذلك خشية من ان يراقبوا ويطلعوا على سوء ادارته وتصرفاته، ومن اجل ان يبرر تصرفه للباب العالي كتب اليه يعلمه بانه لم يعد بحاجة الى هذه القوات لان الايرانيين قد انسحبوا من الحدود ومن البصرة وما حولها وان الامور عادت الى مجاريها الطبيعية، وكان هذا خلافا للواقع. وسرعان ما سقطت البصرة بيد الجيش الايراني، وازاء ذلك صدر الامر بعزل مصطفى من ولاية بغداد وتعيين والي كوتاهية عبدي باشا خلفا له، ولم يبد مصطفى اية مقاومة، بل هرب إلى الموصل ومنها إلى ديار بكر وهناك وردت الاوامر المستعجلة بتوقيفه ثم نفذ به حكم الاعدام، وكانت مدة توليه الحكم في بغداد ثمانية اشهر أو تسعة. ولما حضر عبدي باشا إلى بغداد وجد الحالة سيئة جدا، فقد تعاظم امر عبد الله اغا واصبح مسيطرا على اواسط العراق جميعا، وازاء هذا الوضع المتدهور وجد الباب العالي نفسه امام الامر الواقع مرة اخرى فقد عجز ولاة الذين ارسلتهم الدولة العثمانية عن حكم

العراق وانقاذه، لهذا تخلى عن فكرة القضاء على الحكم المملوكي في العراق، وصدر الفرمان بإسناد باشوية بغداد إلى عبد الله اغا وتعيين حسن اغا حاكم ماردين وكتخذا أبي ليلة السابق، واليا على كركوك، مع توجيه رتبة الباشا اليه. وقد كان والي طربزون قد انتقد في تقريره الذي كتبه عام ١٧٧٦وسماه(تاريخ جديد) أو (بادكار تاريخ) ما كنت تفكر به الدولة العثمانية تجاه مماليك العراق من محاولة ابعادهم عن الحكم واحلال الاتراك محلهم، فهو يرى أن خطورة الاوضاع التي يعيشها العراق تتطلب حشد كل الطاقات العثمانية والمملوكية، فهناك جيش اجنبي يحتل البصرة، وهناك ثورات عشائرية عربية وكردية.

تميز عهد عبد الله باشا (١٧٧٦-١٧٧٨) بالضعف، ولم يكن لديه المعرفة والقدرة على حكم بغداد، حتى انه وصف من قبل بعض المؤرخين بالأبله، وكان عبد الله باشا قد عين عجم محمد خزنة دار، وهو محمد بك الايراني الاصل الذي عرفه البغداديون باسم عجم محمد، وقد جاء الى بغداد من ايران ايام حكم والي بغداد سليمان باشا ابي ليلة تصحبه أمه واختاه فألفوا جوقا موسيقيا، اذ كانت اختاه ترقصان، وامه تنقر الدف وهو يغني، واستطاع ان يؤثر على بعض ضعاف النفوس في حكومة بغداد فعين دويدارا (أي حامل الدواة) في عهد الوالي عمر باشا ،ثم تزايد نفوذه في عهد الولاة الذين جاءوا من بعده، فارتقى مناصب عدة، حتى وصل منصب (الخزنة دار) وصار يطمح لمنصب الباشوية، وتمكن عجم محمد بنفوذه ومركزه في الحكومة من توجيه سياسة ولاية بغداد. وقد اتبع سياسة مالية سيئة اتسمت بالتعسف الى حد اجبرت الكثير من التجار الى الهروب من بغداد. والحقيقة ان السيطرة الفعلية على الادارة في بغداد كانت بيد عجم محمد، وبعد وفاة عبد الله باشا اندلعت حرب اهلية بين الطامعين بالولاية دامت خمسة اشهر تنافس خلالها عجم محمد الذي اسند اليه الوالي عبد الله باشا امور الولاية في اثناء مرضه، واسماعيل اغا الكتخذا السابق الذي عزله عجم محمد وانتهى الامر بتعيين السلطان العثماني حسن باشا والي كركوك ولكن حكم الوالي الجديد لم يكن افضل من سابقيه فقد استمرت الصراعات مع الطامعين بولاية بغداد لاسيما عجم محمد. وفي البصرة كان سليمان اغا يرقب احداث بغداد المضطربة بعين اليقظة نتيجة المصائب والويلات التي تعاني منها المدينة بسبب هجمات انصار عجم محمد وحليفه احمد اغا قائد اللاوند المتكررة والتي اقتربوا في احداها من الاعظمية، وكانوا قد عادوا مرة اخرى على مسرح الاحداث، متخذين من بعقوبة ونواحيها مركزا لتجمعهم، وقد ازداد هياج الاهالي ووضعوا المتاريس في الشوارع وارتاع الوالي خوفا على حياته، وفي ٢٧ تشرين الأول عام ١٧٧٩ شن الاهالي

هجوما على السراي، فهرب الوالي إلى جانب الكرخ، ومنه إلى الموصل، وهناك تلقى خبر نقله إلى ديار بكر فغادر إليها، وعند وصوله الم به مرض توفي على اثره، وبذلك شغرت باشوية بغداد. وقد انتهز سليمان اغا هذه الفرصة وكان قد كاتب السلطان مزينا له اسناد ولاية بغداد اليه، متعهدا بقطع دابر الفتنة وتوطيد الامن.